

أوجه النقص والكمال فيما لدينا من إنتاج لترسم صورته الحقيقية جميلة كانت أو قبيحة .

وقد ظهر أخيراً كتاب أهل الكهف لتوفيق الحكيم وهو من نوع الإنتاج الذى أقصده . ولا أذكر كتاباً قابله النقد فى مصر بعناية وتقدير بمثل ما قوبل به هذا الكتاب . ولست أتعرض هنا لنقده بعد أن وفاه حقه الدكتور طه حسين والأساتذة مصطفى عبد الرزاق والمازنى وهيكى بك ومحمد على حماد وغيرهم من فضلاء الكتاب .

ذلك أن مؤلف أهل الكهف صديقى وربما كان تقدمى لنقد كتابه — والأمر كذلك — مثيراً لريبة مشروعة . وهل هناك من شك فى أنى سوف أحيط كتابى باطار من العطف الذى تبرره شريعة الصداقة ، أوليست الصداقة فى بعض وجوها نوعاً من التعاون الحالى وضرباً من التنازح فى سبيل النجاح ! وإنما حلالى أن أكتب عن تاريخ حياة هذا الكتاب . وقد قدرت فى تلك الصداقة التى كانت تلقى الريسة على نقده تزكية لا غبار عليها للكتابة عن تاريخ حياته ، وما تاريخ حياته إلا وجه من تاريخ حياة مؤلفه ، وقطعة من شخصيته لعل أجدر الناس بالكتابة عنهما .

منذ عشر سنوات خلت كان توفيق الحكيم طالباً فى مدرسة الحقوق ومؤلفاً مسرحياً ملحفاً بمسرح حديقة الأزبكية ، وقد تقدم إلى هذا المسرح بروايات عدة بعضها مؤلف وبعضها مقتبس عن المؤلفات الأوروبية . وقد قرأت هذه الروايات فى ذلك الوقت وكنت عندئذ هاوياً لكل ما يتعلق بالمسرح . وكان من بين هذه الروايات رواية مؤلفة عنوانها « المرأة الجديدة » وموضوعها مشكلة المرأة فى الجيل الحالى . وقد لاقى هذه الرواية من النجاح ما لاقى ، وقد يكون دون ما تستحق وقد لا يكون ، وقد لا يزال توفيق الحكيم ينظر إلى رواياته الأولى بعين لا تخلو من الحنو والعطف ، وقد يكون هذا الشعور مفهوماً من جانبه ، أوليست أعمال الشخص كاطفاله اذا حظى السليم منها بالحب اختص العاطل منها بالعطف والحنان !

وكنت أنظر حينئذ إلى توفيق الحكيم بعين الأمل ، ذلك انى كنت أراه منصرفاً إلى فنه تمام الانصراف ، فى إخلاص وإيمان ، شاعراً بأن هذا الفن يجرى فى دمه ، وهو لم يشعر بذلك شاباً فقط . وإنما هو هم احتواه صيماً فراهقاً . فهو لا يعيش إلا

توفيق الحكيم

للدكتور حلى بهجت بدوى

لشبابنا المثقف شكوى تواضع على صيغتها على اختلاف ألوان ثقافته ، وتلك الشكوى هى نقص الغذاء الفكرى فى الحياة المصرية . وقد كان لتبين وجه هذا النقص آثار بغيضة ، فهو أولاً منتشر فى النفس فى مزيج من السأم والتشاؤم ، وهو على أى حال باعث فى العزيمة خوراً وفى الهمة فتوراً ، وهو بعد ذلك — وهنا وجه السوء — دافع إلى المغالاة فى التقدير . إذ كثيراً ما يصيب الصيغة الصحيحة هرى من النفس فتظل فى عرف الناس صادقة على مدى الزمن وإن تساقط بعد ذلك وجه الصواب فيها . وكان من أثر هذا النقص أن نظر الشباب إلى الجانب الفكرى من الحياة المصرية فخيله مستقعاً آسناً ، فأنصرف عنه أما إلى الحياة المادية وما فيها من لهو وعبث ، وأما إلى مصدر ثقافته مستعيناً بالكتب والمجلات الأجنبية .

فلم يكن غريباً بعد ذلك أنه كلما بدا وميض من النور فى حياتنا الفكرية لم يلق إلا أعيناً مغمضة ، وإذا أينع زهر صغير صادف برداً فذبل والتوى .

أزمة الغذاء الفكرى شر اذن ، وإنما شر منها روح التشاؤم الذى فشا فى هذا الشباب المثقف ، وكلمة السر التى جرت على الألسنة فى سهولة عجيبة من أنه لا سبيل إلى تلبس هذا النوع من الغذاء فى الإنتاج المصرى والتى تنتهى إلى قتل العناصر السليمة التى قد تنهض لتغذية حياتنا الفكرية .

وإذا أنا ذكرت الإنتاج المصرى فانى أرسل هذه الكلمة على معنى خاص . فانا أستبعد الترجمة لأنها ليست إلا وسيلة لتغذية من كانت ثقافتهم عربية محضة ، أو لتهيئة الاتصال بين ثقافتين مختلفتين . وأنا أستبعد كذلك النقد لكى أستبقى بعد ذلك صورة واحدة ،

هى الخلق Création

وإذا أنا استبعدت النقد فليس ذلك لأننى أخرجه عن معنى الإنتاج ، أو لأننى أتمثله ضعيف الشان فى تمويننا بالغذاء الفكرى ، وإنما استبعدته لأنه مرهون بالخلق ومن أجل ذلك كان النقد الذى أينعت أثماره فى مصر هو ذلك النقد للاتاج الأوروبى وللانتاج العربى القديم . أو ذلك النوع من النظرات العامة التى تلبس

من أجله ، ولا يفكر إلا فيه . وإذا اطمان اليك مرة فحدثك عنه
أدهشك ذلك الحماس الذي ينبعث منه ، وتلك النشوة التي يغرق فيها
إلى آذانه فتأخذ بلبك وبلبه .

من أجل ذلك كنت أنظر إليه بعين الأمل ، ولكن لم يكن أمل
فيه محدداً بل كان أملاً غامضاً لعل مصدره ما في الشباب من صحة
وثورة وتفاؤل ، وعلى أي حال لم أكن أمل في نجاحه إلا من
ناحية الكتابة الفسكة ، وقد بعث هذا في نفسي روايته « المرأة
الجديدة » ، إذ كتبها وهو يقصد عين الجد فاذا به أصاب دعابة
لذيذة ، وكنت أملح في دعابته نوعاً من العمق لم أكن متيقناً منه ،
ولنما كنت أحس به وأنا بين المصدق والمكذب .

إلى ان سافرنا منذ ثمانى سنوات إلى باريس بعد انتهائنا من
دراسة الليسانس ، وكان المقصود من سفرنا دراسة دكتوراه الحقوق
وبهرنا عند وصولنا ازدهار الفن والادب في باريس ، وظهر
لنا جلياً ناطقاً محدداً ذلك الجانب الروحي والفكري من الحياة
الذي حرمننا من نعيمه في مصر ، كيف أينعت أزهاره في هذا البلد ،
كيف كان داني القطوف ، عجيب الألوان ، شهى الرائحة . ويدرك
من يتذوق هذا الجانب من الحياة كيف يحلو الرى بعد هذا الظلم
والامتلاء بعد طول الطوى . فهل كان من المعقول أن يعيش توفيق
الحكيم في باريس وهي مبهط الفن والادب ، وأن يمر بهذا الفن
والادب وفي دمه ذلك الحماس ، وفي روحه ذلك الخلوص
والانصراف فلا ينهل من الفن والادب إلا بقدر ما ينهل الناس
لمجرد الغذاء الفكري ؟

ما مضت بضعة أشهر على إقامتنا في باريس حتي بدأت أنظر
إليه بعين ملؤها الاحترام ... الاحترام الغامض أيضاً .

ذلك أنى رأيته وقد انصرف عن اللهو وعما يحصل كل شاب
من باريس عادة ، عن باريس اللاهية ، عن باريس الضاحكة
الماجنة ؛ انصرف عن كل هذا بنفس آمنة مطمئنة . وإذا به وأحياء
باريس عشرون حياً يبدأ أولها في مركز المدينة وينتهي آخرها
بأطرافها يسكن الحي العشرين ، وما أظن مصرياً قد هبطت
قدمه إلى هذا الحي غير توفيق ، ومن كان يفكر في زيارته
من أصدقائه .

قرأ كتاب تين Taine عن فلسفة الفن فانبثق له من هذا
الكتاب قبس من نور ، فتعلق به وقد شعر أنه باستهوائه إياه
لابد وأصل إلى استكمال ثقيفه ، وإلى ادراك مكنونات الفن
أسراره ومنعطفاته . وانكب على دراسته انكباً . والكتاب

يتحدث عن فن التصوير والنحت أكثر مما يتحدث عن غيرها ، فهو
ذهب اذن لزيارة متحف اللوفر في زيارات دورية ، وقد أصبح
له هذا المتحف بمثابة الجامعة للطالب . وهو مصطحب هذا الكتاب
كصديق مرشد . وهو مثبت من مطابقة التدليل البديع الذي
يجرى به قلم تين عن كيفية نشوء فن ما ، في بيئة ما ، على تلك
المجموعة التي لا تقدر من كنوز الصور في متحف اللوفر . وهو
قد قرأ الكتاب واستوعبه استيعاباً وهضمه هضمًا ، ثم شاهد كيف
استخلص تين حياة هذه القطع الفنية من جنس الفنان والوسط
الذي أحاط به والوقت الذي ظهرت فيه .

ولكن أنى له أن يفهم فن التصوير فهماً واعياً ، وثقافتاً المصرية
في هذا الشأن معروفة ! ان كتاب تين ليس الا خلاصة محاضرات
كان يلقيها على طلبة مدرسة الفنون الجميلة في باريس ، فهو يتقدم
به الى أناس على قدر متقدم من الثقافة الفنية ، وقد شعر توفيق
بعد قراءته للكتاب بالنور يهره ، فادرك أن هناك جمالاً لم يكن
يحس بوجوده قبل ذلك وعالماً آخر تراه له ولكن في اطار من
السحب والغيوم . وأحس في الوقت نفسه أنه لم يدرك كنه هذا
الجمال بعد ولم يدخل هذا العالم الجديد .

وكان أن عرضت له فرصة يتعجل بها سد هذا النقص الذي
كان يقض مضجعه ، فلم يتردد في التعلق باهدائها ، فهو قد تعرف
في ذات يوم الى شاعر فرنسي أخنى عليه الفن والادب ، ولعله
البقية الباقية من جماعة البارناسيين Parnassiens من مذاهب
الشعر ، فرأى فيه توفيق رجلاً مثقفاً ثقافة واسعة ، ذا مكانة في
الادب والشعر ، وان جار الزمان عليه وعلى مذهبه . فجعل يمد هذا
الشاعر البائس باعانة مالية نظير استعانتته به في فهم أسرار اللوفر
ومتحف رودان والمكتبة الاهلية .

ثم انكب على القراءة انكباً ، ولكن الانتاج الاوربي
هائل فيه الغث وفيه السمين ، وإلى جانب الانتاج الحديث يوجد
الكلاسيك وهو لا يقل هولاً ، والوقت من ذهب ، لابد اذن من
ان يختار ما يقرأه من بين هذا كله ، وهو شاعر بالمراحل الواسعة
التي لابد له من قطعها ليستعيض عما ضيعه من ايام شبابه في قراءات
كان يتخبط فيها دون هدى او مرشد ، وهو يستعين اذن
بصاحبه الفرنسي في هذا الاختيار ، وهو يستمع إليه في دروس
خاصة منظمة ، جعل صاحبه يعايرها له كما يعاير الدواء للمريض ،
وإذا به الآن قوى البنية بعد هذا الهزال الطويل ، عبل الذراعين
بعد هذا الضعف والتهاك .

وهو لا يكتفي بعد ذلك بالتهام الكتب واستيعابها ، وإنما هو

الحكيم الذي كان مولها بالموسيقى الشرقية ، غارقاً وراء أسرارها يستمع الآن الى الموسيقى الغربية ؟

لقد أدرك معنى ، أنها إحدى الفنون السبعة ، فهو الآن منكب على دراستها انكباباً ، ولا بأس أن يستعين باصدقائه الفرنسيين على فهمها ، وهو منصرف الى الأوبرا والأوبرا كوميك والى صالات الموسيقى السمفونية ، ولا بأس من أن يذهب الى الأوبرا ولو لم يقتدر الا على أعلى التياترو ، ولا بأس من أن يتسلل بلباسه الغريب المتواضع على درج أوبرا باريس الفخمة ، ومن بين أزياء المساء الفاخرة ولآلاء الجواهر الثمينة !

واذا به يتدرج كالتالب في المدرسة ، فهو معجب أولاً بسان ساينس وبيزيه وموسيقاهما ذات النغم الشرقى ، ثم هو منتقل بعد ذلك الى الإعجاب ببيتهوفن وموسيقاه الرومانتيكية ، وهو بعد ذلك مشيد بذكر فاجنر وموسيقاه القوية ، وهو أخيراً يستمع الى موسيقى أسترافسكى وغيره من المحدثين .

سأله أخيراً المكاتب الفن لأحدى الجرائد المصرية عما أوحى اليه بأهل الكهف ، فكاد ينطلق لسانه باسم بيتهوفن ، وقد قص على هذه الحادثة فلم أملك نفسي من الابتسام .

— ولماذا لم ينطلق لسانك ؟
فكان رده الذي كنت أتوقعه والذي من أجله ابتسمت :
— يضحكون منى !

وهو في وسط هذا التكوين الهائل الذي كان يمون نفسه به أخذ — ومن ساعة متقدمة — يحاول الانتاج ، لجعل يزاوِل الكتابة بالفرنسية ، فكتب قطعاً من الحوار وجعل يعرضها على بعض أصدقائه الفرنسيين ، ولم يثن عزمه عن الكتابة المأمة الابتدائي بالفرنسية ، فهو مثابر مجد على رغم ذلك ، وهو في النهاية قد عثر على صيغته ، واذا بأصدقائه الفرنسيين يشهدون له بأنه في توجيه الحوار واسع الحيلة ، واذا بعضهم يذكر عند قراءته لتوفيق بورثوريس الكاتب الفرنسى الشهير وحواره المقتضب المتناسك .

وكنْتُ أراقب هذا النماء عن قرب مغتبطاً به ، سعيداً بمشاهدتي هذه الثمرة كيف غرست ، ثم كيف نمت ، ثم كيف ترعرعت وأينعت ، ولم ينشأ شعورى بهذه السعادة عند ما نشر كتاب أهل الكهف ، وعند ما استقبله النقد هذا الاستقبال العظيم ، وإنما هو قد نشأ من زمن بعيد ! عند ما قرأت « أهل الكهف » مخطوطة منذ ثلاث سنوات قبل أن تتخاطفها أيدي المدرسة الحديثة ، بل عند ما قرأت « شهر زاد » مخطوطة منذ أربع سنوات ، لما أرسلها الى توفيق

يجعل من قراءته أداة للتأمل والتفكير . فهو يركن الى الوحدة في غالب أيامه يهضم فيها ما قرأ ، وهو يجلس في قهوة نائية . وقد فتح امامه كتاباً ذراً للرماد في العيون ، ثم يظل يسبح في بحر خياله وهو مغتبط بهذه الوحدة كبير بها ، وكأنه قد أدرك قول ابن سينا : « ان الرجل الوحيد المنفرد هو الرجل القوى » .

وكنْتُ دائماً ألتقي ثمرة ذلك التأمل الطويل ، فهو يغيب عنى اسبوعين او ثلاثة ثم يزورنى فاجلس اليه ساعات متوالية ، لا ينقطع فيها حديثه ، وهو دون شك قد اختار موضوع هذا الحديث قبل حضوره . ودون شك كان هذا الموضوع شاغله الوحيد في هذه الأسابيع الماضية ، وإذا بي أمام محاضرة طويلة عريضة ... متشعبة ، ولكنها مبوبة تبويها كاملاً ، مرتبة ترتيباً بديعاً . وإذا لها خاتمة تلم بأغراضه ، وإذا بي غارق في نشوة صافية ، وإذا أنا مفكر في هذا الموضوع وذاك الحديث ، لا في أثناء انصاتي اليه فقط بل بعد انصرافه عنى أيضاً .

أنصرف في حين ما الى قراءة ما كتب عن قدماء المصريين وعن روحهم العميق ، وإذا هو شاعر بمصريته العريقة كيف هي تتمشى في دمه ، وإذا هو محدثك عن هذا الروح في غفر وإدراك لا في مجرد زهو ونعرة ، وإذا أنت يهرك هذا الافضاء ويملكك نوع من الحماس ، وتكشف لديك آفاق جديدة ، وتحلل في ذهنك ألغاز كنت تحار في تحليلها أو كنت تغلغلها تغليلاً غامضاً ، وإذا الأمل الذي كان يدب في نفسك دينياً مبهماً في مستقبل مصر ، وفي روح مصر قد تحدد لديك تحديداً كاملاً ، لأنك تشاهد النور بعد أن حجبه عنك ستار ، وتلبس الحقيقة بعد أن كانت وراء حجاب ، وتشعر بما في روح مصر من عبقرية خاصة ، بعد أن أدركت أسبابها فلم يصعب بعد ذلك أن تأمل فيما تؤدي اليه من ثمرات .

وهو لم ينس المسرح — فنه العزيز عليه — في وسط هذا كله ، فهو يشاهد التمثيل من الكوميدي الى الأوديون الى مسارح البولفار الى مسارح الطليعة Avant Garde ، لا يدوكة ملل ولا سأم ، وهو لا يذهب لمجرد اللذة الفكرية ، بل أيضاً للدروس والوعي . وهل يمكن أن يكون الأمر غير ذلك وتلك النار المقدسة تنفخ في صدره وتوطد من عزمه لا تدركها هودة ولا جمود !

ويدهشك بعد هذا أنه في يوم ما منصرف عن هذا كله ، عن قراءاته وعن مسارحه ، عن اللوفر ورودان وبقيّة المتاحف ، وإذا به يشغله شيء واحد : الموسيقى ، ماذا ؟ توفيق الحكيم الذي كان يكاد يشترك في تلحين رواياته الموسيقية في مصر ، توفيق

اشخاص الرواية وانما هو يبادر بذكرهم من تلقاء نفسه ، شأن من فهم روح مؤلف أهل الكهف !

بهذه الموهبة الفذة وبهذه الثقافة الشاملة وهذا المجهود الجبار يتميز توفيق الحكيم ، فهو قد أدرك أن الأدب ليس مجرد سليقة نطلقها فتنطلق ، أو الهاما يوحى اليها به فنرسله على طبيعته ، وانما هو الى جانب ذلك وقبل ذلك علم ودراسة ، لا بد فيها من المثابرة على القراءة ، والانتكباب على المذاكرة ، والالمام بجميع نواحي الفنون ، والتأمل في كل ما نقرأ ونشاهد .

وكتاب أهل الكهف الذى لاقى مالا قاه من نجاح لدى النقد فى مصر ، والذى لأشك فى أنه سوف يستقبل استقبالا عظيما لدى النقاد الأوربيين اذا ما ترجم اليهم ، هذا الكتاب اذن لم يكن ثمرة مصادفة ، لم يكن زهرة صغيرة أينعت فى المستنقع المصري وانما هو درحة هائلة غرسها غارس ثم تعدها بالصيانة والتهديب

وبعد ، فاني أدرك أن مقالى هذا قد يرسم على الشفاه ابتسامة ذات مغزى !! هو صديق يقوم بالدعاية لصديقه . ولأمر ما ، يهمني أن أرفع هذا الخطأ المحتمل ، فان مؤلف أهل الكهف ، وكتابه ليسا فى حاجة الى دعاية بعد أن أجمع النقاد على تقدير الكتاب .

وانما حاولت ان أرسم صورة لتاريخ حياة الكتاب بان قدمت صورة من تاريخ حياة مؤلفه ، أظهر بها جانبا هيات الى الصداقة التى تجمعنى ومؤلف هذا الكتاب أن ألم به ، فأثرت أن يطلع قراء الكتاب على هذا الجانب .

وربما كان لى غرض آخر من هذا المقال : هو ان يدرك شباننا المتأدبون أن فن الأدب لا يكتفى فيه بالموهبة ، أو بالاعتقاد فى تلك الموهبة ، ثم ارسال القلم فى كتابات لا تقدمنا خطوة واحدة ، وانما هو الى ذلك اطلاع وتأمل ، لافى الشعر والنثر بانواعه فقط ، بل كذلك فى النحت والتصوير والموسيقى ، ولافى الانتاج العربى وحده ، بل كذلك فى الانتاج الأوربى ، ولست احاول ان أرسم بهذا خطة ، فالخطة مرسومة مقدما ، بل هى بديهية من البديهيات ، وانما قصدت لفت النظر .

فاذا أتى اليوم الذى نرى فيه شباننا المشتغلين بالأدب قد ادركوا هذه الحقيقة كنا سعداء : توفيق الحكيم ، وكتب هذه السطور وكل من يجرى فى دمه الاخلاص لهذا البلد المنكود بكل ما تحتويه كلمة الاخلاص من معنى ؟

باريس بعد عودته الى مصر ولما حملتها راكضا الى الدكتور ماردروس (وهو اديب فرنسى ترجم الف ليلة وليلة الى اللغة الفرنسية ، وزوج مدام لوس دلاو ماردروس الكاتبة الفرنسية المعروفة) ليقراها وليرى من أى زاوية نظر مؤلف مصرى الى قصص ألف ليلة وليلة .

بل شعرت بذلك منذ خمس سنوات عند ما كنت أقرأ أولا بأول الصفحات الأولى من رواية «عودة الروح» عند ما كان مؤلفها يحاول ترجمتها الى اللغة الفرنسية .

عند ذلك كله تحدد أملى فيه بعد أن كان غامضا ، وتبدد ذلك التشاؤم الذى كنت أنظر به الى جونا الفكري ، وأدركت ان لدينا مؤلفا نفاخر به المؤلفين الأوربيين نقرأه فى لذة وإعجاب ، إعجاب بهذا المنظار الخاص الذى ينظر به الى الاشخاص والاشياء والحوادث فيكتشف فيها نواحي فذة .

نعم . فقد تمر أمامنا الحادثة لانفكر فى أن نعلق عليها اهمية خاصة .. ولكنها تستوقفه فيناقشك فيها . ويبدأ يصور لك فيها تصويرا غريبا ، فاذا هى امتدت ، واذا هى ذات جسم وكيان ، واذا بها نواح من الاهمية بمكان ، واذا أنت دهش بعد ذلك كيف مرت عليك ولم تلحظ فيها كل ذلك .

كنت أتحدث مرة الى أحد أصدقائنا عن روايات توفيق الحكيم ، وتسلسل الحديث الى أن ذكرت لمحدثى أن توفيقا قد كتب رواية اسمها «الخروج من الجنة» ، فكان رده على :

— وطبعاً شخصيات الرواية ثلاث : آدم وحواء وابلis ! فلم أتمالك من الابتسام ، ذلك أن عنوان الرواية ليس الا رمزا وأن أشخاص الرواية عصريون فليسوا آدم وحواء ، وانما هم محمود واقبال وغيرهما من أبناء آدم وحواء .

وقد ابتسمت لقول صاحبي لأنه لفظه فى اطمئنان عجيب ، وسر اطمئنانه أنه قد قرأ «أهل الكهف» ورأى كيف استخلص مؤلفها تلك القطعة الفلسفية من القصة التى لا يفهمها مصرى وقرأ «شهر زاد» فرأى ثمرة التأمل الذى أوحى به قراءة ألف ليلة وليلة الى صديقنا توفيق ، فاذا هو كتب رواية بعنوان «الخروج من الجنة» فهو لأشك قد عاجل خروج آدم وحواء لأن هذه الحادثة قد استوقفته ، ولا بد انه قد نظر اليها من زاويته الخاصة قصصها رواية مسرحية !

خرج صاحبنا من مجرد عنوان الرواية ومن مؤلفها توفيق الحكيم بهذه النتيجة التى يراها طبيعية ، وهو حريص على ان يكون استنباطه لتلك النتيجة من تلقاء نفسه ، فهو لا يسأل عن